

رعاية الأيتام.. عنوان للرحمة



الإحسان إلى اليتيم خُلق إسلامي رفيع حثَّنا الإسلام عليه وندبنا إليه، بل وجعله من أفضل الأعمال وأزكاها، قال تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالْإِسْلَامِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرِّسَالِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ...) (البقرة/ 177).

شاءت إرادة الله أن يُولد رسولنا العظيم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يتيماً؛ ليتولى الله الكريم تربيته بنفسه، لذلك قال (صلى الله عليه وآله وسلم) عن نفسه: «أدبني ربِّي فأحسن تأديبي» فإذا كان المؤدِّب هو الله، والمؤدَّب هو رسول الله، والواسطة هو جبريل الأمين (عليه السلام)، فإنَّها لكمالات. ولِدَ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتيماً كي يكون باعثاً لنا لنكرِّم اليتيم، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»، وأشار بأصبعه يعني: السَّبَّابة والوسطى. إنَّ اليتيم هو مَنْ مات أبوه وهو صغير.. اليتيم هو الشخص الضعيف الذي فَقَدَ مصدر الأمن والحنان والحماية.. فقد نظرة الرحمة الحانية من أبيه أو أمِّه.

جاء الإسلام ليرعى اليتيم ويؤسِّس حقوقه قبل العالم بأربعة عشر قرناً، ويحثُّ الناس على كفالتهم، ورعايته عاطفياً ووجدانياً، حتى ينشأ سويّاً ومُحبّاً للخير، وقد عظم الله شأنه، وجعل له مكانة كبيرة في الإسلام، ومن تكريم الله له أنَّهُ حينما يبكي يهتز لبكائه عرش الرحمن، ويقول الله حينها: «مَنْ الذي أبكى هذا الغلام الذي غيب أباه في التراب». وجعل الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) خير بيت في الإسلام؛ بيت فيه يتيم يُحسَّن إليه، فإنَّ خير البيوت بعد بيوت الله هي البيوت التي فيها يتامى يُحسَّن إليهم... وجعل الله علاج قسوة القلب وأمراض القلوب، في المسح على رأس اليتيم، وإطعام المسكين، فقد جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يشتكي من قسوة قلبه، فوصف له النبي العظيم الدواء الناجع بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «امسح رأس اليتيم واطعم المسكين».

وقد حفل القرآن بآيات عديدة عن اليتيم، تخطت عشرين آية، منها قوله تعالى: (وَيَسْأَلُ لُولُوكَ
عَنِ الْيَتَامَى قَوْلًا مِّنْ صَّالِحٍ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنَّهُ خَالِطُهُمْ فَلَا يَخْوَزُهُمُ وَالْبَاقِي
يَعْلَمُ الْمُمُضِينَ مِنَ الْمُصْلِحِ) (البقرة / 220)، وقال سبحانه: (وَأَن تَقُومُوا
لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمِمَّا تَفْعَلُونَ مِمَّنْ خَيْرٍ فَإِنَّ آلَهُ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)
(النساء / 127)، وقال جلّ جلاله: (يَسْأَلُ لُولُوكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَزْنِفْتُمْ مِّمَّنْ
خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالْمَسْكِينُ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَمَا تَفْعَلُونَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ آلَهُ بِهِ عَلِيمٌ) (البقرة / 215)، وقال تعالى:
(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (البقرة / 216)، وقال تعالى:
(قُرْبَىٰ وَيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ) (الفجر / 17)، وقال عزّ من قائل: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)
(الضحى / 9)، وقوله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّمْعَ أَعْمَى عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا) (الإنسان / 8).. لقد جاءت الرؤية القرآنية لتؤكد أنّ كفاية اليتيم ورعايته وصيانته
والقيام على أموره من أعظم أبواب الخير والبرّ والرحمة، والناظر المدقق في الآيات السابقة يلحظ
أنّ الله تعالى قد عطف بحرف (الواو) ليفيد مطلق الجمع بين المتعاطفين، وكأنّ الإحسان إلى الوالدين
وذوي القربى واليتامى.. إلخ من عبادة الله عزّ وجلّ، ولا يقلّل عنها بل يأتي بعدها مباشرة. وإذا
كانت الرؤية القرآنية قد حفزت النفوس والهمم على كفاية اليتيم، وصيانته، ورعايته، وتحقيق أمنه
بمعناه الشامل، فإنّها في الوقت نفسه، حذرت من إيذاؤه بأي صورة من صور الإيذاء، سواء أكان حسياً
أم معنوياً.. مباشراً أم غير مباشر.. بالقول أو بالفعل.. بصريح العبارة أو كنايةها.. يقول
تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) وحذرت من إيذاؤه في ماله وهو الضعيف الذي لا يقوى على
 حمايته؛ بل جعلت الاعتداء على أموالهم خطاً أحمر، يستوجب العقاب الشديد في الدنيا والآخرة،
(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَنْكُنَّ عَلَيْهِمُ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) (النساء / 10).